ظاهرة الصوامع المثمنة الشكل بشمال المغرب
هل هي مستوحاه من شكل قبة الصخرة بالمسجد الأقصى ؟

أ.د. عبد الهادي التازي*

تعتبر مئذنة جامع القرويين بفاس ـ بدون نزاع ـ أقدم منارة صمدت في العالم الإسلامي كله علي نفس ما بنيت عليه ، في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة (يولية غشت 956) من لدن الأمير أحمد الزناتي والي فاس علي ذلك العهد، أقول أقدم لأن بعض المأذن التي سبقت مئذنة القرويين في جهات أخرى من بلاد الله دخلتها تغييرات و ترميمات لم تبقها علي حالها الأول بينما نرى أن منار جامع القرويين ظل هو منذ اليوم الذي شيد فيه ، و من هناك كان الوقوف أمام هذه الصومعة وقوفاً مع أثر معماري لا نظير له في سائر أنحاء العالم الإسلامي .

وقد تميزت هذه المئذنة التي حكينا عنها بظاهرة معمارية ظلت هي الطابع الذي تتميز به سائر الصوامع الموجودة بمختلف أنحاء المغرب من أقصاه إلي أدناه، ليس فقط في القرن الرابع الهجري و لكن أيضاً في العصور اللاحقة مروراً بعهد المرابطين و الموحدين و بني مرين إلي عهد السعديين و العلويين .

وقد قلت ـ وأنا أؤرخ لجامعة القرويين ـ " إن المهندس المغربي علي ذلك العهد ربما إستوحى تربيع المنارة من شكل الكعبة المشرفة التي كان الآذان يرفع جوارها في العهد المتقدم لظهور الإسلام .

ذلك التربيع الذي ظلت القرويين القدوة الأولي فيه بعد جامع القيروان[1] ، و نتساءل اليوم عن بعض الشواذ إزاء هذه القاعدة التي دأبنا علي رؤياها يومياً ... وأعني به منار الجامع الأعظم في مدينة وزان ومنار الجامع الأعظم كذلك في حاضرة شفشاون ومنار جامع القصبة بطنجة .

و بالرغم من أن مدينة وزان عرفت منذ أن إستقر فيها الشيخ الصالح مولاى عبد الله الشريف العلمي اليملحي الوزاني في القرن الحادي عشر الهجري- السابع عشر الميلادي، أقول عرفت بحضور مكثف للأشراف منذ ذلك التاريخ المبكر فقد ظلت الزاوية مكتفية بمسجد محدود المساحة إلي أن كثر السكان والأتباع. فهنا وجدنا الدوله في شخص السلطان المولي سليمان (1206-1238هـ/1792-1822م) تقوم بإنشاء مسجد جامع هناك علي ما نقرأه في كتب التاريخ المتداولة بين الناس[2]، هذا المسجد الجامع هو الذي كان يتوفر علي مئذنة مثمنة الشكل علي خلاف سائر المساجد المعروفة في المغرب ...فهل كان لهذا التطور أسباب ؟ أم أنه أتي تلقائياً ودون سابق تخطيط ، بمعنى أن مزاج الباني الذي رفع المنار ظهر له أن يبتكر هذا الشكل لسبب أو آخر ..

لقد حاولت أن أعرف ، وسمعت أن المئذنة ربما ترجع لتاريخ متقدم إلا أنني أعتقد أن المئذنة إنما كانت تتزامن ـ كما أسلفت مع أيام السلطان المولي سليمان الذي كان يعاصر

---

* أستاذ الحضارة الإسلامية وعضو أكاديمية المملكة المغربية .

[1] د. التازي : جامع القرويين ، المسجد و الجامعة بمدينة فاس طبعة دار الكتاب 1972، المجلد الأول ص56-57 .

[2] الناصري : الإستقصا طبعة الدار البيضاء 1956ج 8 ، 173.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ كما نعلم ـ الشريف سيدي الحاج العربي الوزاني المتوفي سنة 1267 وهو الحفيد الرابع لمولاي عبد الله الشريف .

وقد ظهرت ، لحسن الحظ ، طائفة من الرسائل و الأطاريح كتبها أبناء وزان أنفسهم فيها ما كتب باللغة الفرنسية ، و فيها ما كتب باللغة العربية[3] علاوة علي المقالات والبحوث المستقلة ، ولكن الجواب الذي كنت أبحث عنه حول سبب خروج صومعة وزان عن القاعدة ظل معلقاً !

وقد إتجهت نحو ما كتبه الأجانب أيضاً حول الصومعة لكنها ، أى المصادر الأجنبية كانت تهتم بجوانب أخرى غير التي كنت أبحث عنها .

فقد لذ لبعضهم أن يتناول ـ وهو يعالج عام 1918- الحالة الصناعية بمدينة وزان ـ أن يخصص صفحة كلها تقريباً للحديث عن صناعة مسحوق التبغ الذي يحظى بصيت شهير في سائر البلاد ، و الذي نسميه في المغرب " التنفيحة " ويسمونه في المشرق النشوق أو السعوط أو العطوس . وقد صدرت في شأن تناوله عدة فتاوي بين متحامل ومعتدل .

وصفوا ذلك المسحوق بأنه يتكون من أن يضاف إلي أوراق التبغ ثلثها من رماد شجر الضرو (LENTISQUE) وكيف يوضع ذلك في جرة من الطين قبل أن يدق و يعبأ في ظروف جلدية حتي يحافظ علي مفعوله الخ[4] .

وتحدثوا إلي جانب هذه الأشياء عن صلة أشراف وزان بالحياة العامة مما كانوا، أى الأجانب ، يجدون فيه فائدة لهم حول ما يكتبون ، وويل لأمة كتب المستعمرون تاريخها!!

وإذا ما ودعنا أجواء وزان إلي حاضرة شفشاون التي لا تبعد عن وزان كثيراً فإننا سنجد أنفسنا مع نفس الظاهرة أى أن مئذنة المسجد الأعظم بشفشاون هي أيضاً مثمنة ... و نحن نعرف أن شفشاون لا تختلف من حيث شعور المرء بأنه في بقعة روحية أقول لا تختلف عن وزان في ذلك ، فكلما حضر الركاب هنا و هناك تتراقص ذكريات الجهاد و المجاهدين ضد اللذين كانوا يرون أن إحتلال سبتة ومليلية ليس إلا خطوة نحو إجتياح المداشر المجاورة .

وقد نشرت مجلة (دعوة الحق) التي تصدرها وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، نشرت قبل أكثر من ست و ثلاثين سنة نبذة تاريخية عن جامع شفشاون كتبها الأستاذ سعيد أعراب، أعطانا فيها ـ وهو ابن بجدتها ـ فكرة جيدة عن الجامع بكل ما يحتوى عليه من أوقاف ثرية ومرافق عديدة في (عدد أكتوبر 1962) ، ويذكر الزميل العزيز أنه في أيام الناصر محمد بن قاسم شهبون أثناء المائة الثالثة عشر أى السلطان الولي سليمان 1206-1238هـ/1792-1822م بنيت صومعة الجامع الأعظم بشفشاون... وقد إستغرقت مدة البناء نحو السنتين، و يقال أن المعلم الذي تولي بناء الصومعة لايزال الأجداد يروون للأحفاد قصته مع ولده الذي أخطأ في شئ من البناء وقد أشرفت الصومعة علي الإنتهاء ، فلطمه الوالد لطمة ألقت به من أعلي الصومعة .!!

---

[3] Lhachmi Berrady : Les Charfas d`ouezzane 1850-1912 AIX-EN-Province , juin1971.
عبد الإلاه الغزاوي : الممارسة الثقافية للزاوية الوزانية ، كلية الآداب بالرباط يولية 1996 .

[4] Ville et Tribus du Maroc , volume sexisieme : Rabat et saregion ouzzan , Paris 1918, p. 234.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومما ردده الزميل العزيز أن الصومعة إبتدأت مربعة و لكنها بعد أن إستوت مع سقف الجامع في نحو ستة أمتار صارت مثمنة ... و ينفتح في وسط المئذنة جهة الجنوب باب إلي غرفة الموقتين ... علقت بها أى بالغرفة مجانات (ساعات) يلاحظ أن أقدمها يرجع تاريخه إلي عام 1256هـ .

و يتابع الدكتور أعراب الحديث عن المئذنة ليقول : إن الصاري أو " العزري " الذي يعلو المئذنة بنحو خمسة أمتار هو أيضاً مثمن الشكل علي نحو الصومعة ، وقد طلع إلي جانب الصاري عمود من حديد يحمل الرايات التقليدية . يعني العلم الأزرق أو الأبيض الذي يشير لأوقات صلاة الجمعة علي نحو ما يعرف في جامع القرويين من فاس .

و لم يتحدث الأستاذ أعراب عما يوجد فوق الصاري نفسه من عدد التفاحات المموهة بالذهب أحياناً و التي إعتاد المهندس المغربي أن يجعلها علي قمة الصاري و كان عددها يختلف من ثلاثة إلي أربعة إلي خمسة أحياناً علي ما قلناه و نحن نتحدث عن مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء[5] .

وختاماً لذلك الوصف الجميل يقول :" إن الصومعة آية الفن الأندلسي المغربي ." ولم يحضرني الآن هل إذا ما كان في الأندلس منار يقوم علي شكل ثماني؟

مهما يكن فإن المصادر التي تحدثت عن شفشاون التي كانت كما نعلم تابعة لمدينة تطاون ، أقول تلك المصادر أيضاً قالت : إن تاريخ إنشاء الصومعة يرجع لعهد السلطان مولاي سليمان الذي نعلم عن التفاتته إلي تطاون أيضاً . و لم تهتم المصادر الأجنبية بأمر تصميم الصومعة في شفشاون و لكنها إهتمت بأمر طابا المسحوقة التي تجعل في الأنف!

وإلي جانب وزان و شفشاون وجدنا أن قصبة طنجة تتوفر هي الأخرى علي مئذنة لم تلتزم بالشكل المربع المعتاد في سائر جهات المغرب . ومن المعلوم أن السلطان مولاي سليمان كان التفت إلي طنجة وخاصة عندما زارها أثناء الأزمة التي اجتازتها العلاقات بين السلطان مولاي سليمان والرئيس الأمريكي طوماس جيفرسون بسبب إسعاف العاهل المغربي لطرابلس ليبيا .

(رسوم من صومعة طنجة عن مصادر قديمة)

ولا أتذكر هل ما إذا كانت هذه الظاهرة توجد في جهة أخرى من جهات المغرب ولكني أعتقد جازماً أن العلاقات بين المغرب و أسبانيا و الهاجس الذي كان يلازم المغاربة من طمع الأسبان في أرضهم شمال المغرب جعل الحكام يعبرون عن تعلقهم بالأرض عن طريق تكثير المساجد في المنطقة تحصيناً للعقيدة و تشجيعاً علي التمسك بالقرآن واللغة العربية .

تبقي علامة استفهام منتصبة عن اختيار هذا الشكل للمنار . و هل هو كما أسلفنا تلقائي جاء بالصدفة أم أن هناك تقليداً مقصوداً لقبة الصخرة بالقدس الشريف والتي كما يعرف الجميع توجد علي شكل ثماني أم إنها ترمز لخاتم سيدنا سليمان ؟[6]

---

[5] د. التازي : المسجد المأثور الإسلامي ص 323 إلي الصفحة 342 من كتاب مسجد الحسن الثاني – مطابع أنتركراف – ميلانو – إيطاليا ... الإيداع القانوني .I.S.B.N 655\1993

[6] رحلة ابن بطوطة : تحقيق الدكتور التازي نشر أكاديمية المملكة المغربية ج 1 صج24 تعليق 20 – القدس و الخليل في الرحلات المغربية ، تقديم و تحقيق د. التازي – منشورات إيسيسكو 1418-1997.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد عرف عن المغاربة من قديم أنهم متعلقون ببيت المقدس ، عمروه وجاوروا فيه، وحبسوا عليه الرباع والعقار، وعملوا علي مر الزمان بتزويد خزانته العلمية بأعلاق الكتب و ثمين المصاحف ، فلا غرابة أن يستهويهم الشكل الهندسي للقبة لينقلوه إلي مكان يعيشون فيه صباح مساء حيث يستحضرون صورة بيت المقدس كل لحظة من لحظاتهم؟[7]

[7] د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج9 ص304-305 مطبعة فضالة ، 1986.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com